أبعاد المكان_في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية "كاماراد رفيق الحيف والضياع" للصديق حاج أحمد_أنموذجا_ .

فريدة معلم: طالبة دكتوراه ـ سعيدة رحامنية: طالبة دكتوراه
اسم ولقب المشرف: العياشي عمیار، الرتبة: أستاذ محاضر "أ".
مخبر: الدراسات اللغوية والأدبية.
جامعة 8 ماي 1945م ـ قالمة ـ

ملخص:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى دراسة أبعاد المكان_في رواية "كاماراد رفيق الحيف والضياع " للصديق حاج أحمد، وأهميته_في تلوين العمل الروائي، وتحريك أحداثه، مما يتوجب علينا الإجابة على هذه التساؤلات: فيما تتجلى أبعاد المكان_في الرواية؟ وما المغزى من استثمار الأمكنة_في فاعليّة النص؟ وما مدى تأثير المكان_في فضح اللعبة السردية؟

الكلمات المفتاحية: الرواية الجزائرية، المكان، الجماليّة، كاماراد.

Abstract:

We seek through this paper to study the dimensions of the place in the place in the novel camarad rafiq injustice and the loss of the seddik hadj ahmed, and its importance in the coloring of the work novel and moving event, we must answer these questions: as the dimensions of the place in the novel? What is the significance of investing places in the effectiveness of the text? And what is the effect of the place in exposing the narrative game ?

Key words: the Algerian novel, the space, aesthetics, camarade.

تمهيد:

استطاع الفن الروائي أن يتبوأ لنفسه مكانة مهمة على صعيد الساحة الأدبية، والإبداعية، وأن يعتلي صدارة أكثر الأعمال الأدبية بروزًا، فكان انفصال الرواية كنوع أدبي خالص قائم بذاته، عائد بالدرجة الأولى إلى تزوّدها بمختلف القيم الروحية والحضارية، وهذا عبر امتدادها التاريخي، وهي_في عصرنا الحالي تمثل ديوان الإنسانية المعاصرة الحاملة لملامح المجتمعات، وثقافاتها.

ويعد المكان من أبرز العناصر الفنية المهمة، والمكوّن لبنائها الفني، وتركيبها العام، فهو ليس مجرد عالم مادي يحيط بنا بقدر ما هو يؤطر لنا، ويستوعب ذواتنا، وأفكارنا، ويحتضن ثقافاتنا، فللظاهرة المكانية أهمية بالغة في أثناء وجودها في الفن الروائي"إنّ للمكان أهمية بوصفه ملموسًا، إذ باستطاعة الأديب أن يوظفه لتجسيد الأفكار والرموز، والحقائق المجرّدة، أو بالتالي تقريبها من الواقع"[1].

أولاً: مفهوم المكان: كان لمصطلح "المكان" دلالات ومعانٍ، وأبعاد متعددة اتكأت على جملة من المفهومات منها: البعد اللغوي، والبعد الاصطلاحي.

1_ **المفهوم اللغوي**:

على الرغم من اختلاف المعاجم العربية إلا أنّها تتفق على أنّ للمكان مفهوم واحد وهو الموضع والمنزلة، حيث ورد ذلك في لسان العرب في قول ابن منظور: "المكان أو المكانة واحد: أصل تقدير الفعل مفعل، لأنه موضع لكينونة الشيء فيه، غير أنّه لمّا كثر أجروه في التصريف مجرى فعال، فقالوا: مكنانة، وقد تمكن... والمكان الموضع، والجمع أمكنة وأماكن جمع الجمع... والعرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك... فقد دلّ على أنّه مصدر من كان أو موضع منه"[2].

2_ **المفهوم الاصطلاحي**: يلعب المكان دورًا مهمًا في بنية السرد الروائي، حيث لا يمكن أن تخلو الحكاية الروائية من المكان، إذ تعد مرآة عاكسة لصورة الشخصيات، والأحداث، وإنّ تضافر كلا من الزمان والمكان في الرواية يمثل الإحداثيات الأساسية في تحديد الأشياء الفيزيقية بحيث نستطيع التمييز بين الأشياء من خلال وجودها في المكان.

فالمكان في النقد الأدبي تعددت حوله آراء الدارسين، وأبرز تعريف له جاء في كتاب "جماليات المكان" لغاستون باشلار حيث يرى أنّ المكان هو "ما عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيز، وهو بشكل خاص في الغالب مركز اجتذاب دائم"[3].

أما ياسين النصير فله أكثر من رأي في هذا الصدد، فيقول: "عندي يشكل المكان في الرواية الأرضية التي تشدّ جزئيات العمل كله، فهو إن وضّح وَضُح الزمن الروائي... وإن دُرس بعناية فُهمت الشخصية، وإن تناوله الروائي بصدق تاريخي، وصدق فني مكّن عمله من أن يمتد في التاريخ، وإن فهم فهمًا جادًا بعلائقه الأخرى استنطق الكاتب أسلوبًا... وعكس ذلك لن يصبح المكان بين يدي كاتب قليل التجربة، ضعيف المخيلة، فاقد الإحساس بالأشياء جيد"[4].

في حين له تعريف آخر يقول فيه: "للمكان عندي مفهوم واحد يتلخص بأنّه الكيان الاجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان، ومجتمعه"[5].

ومنه فالمكان عند الناقد "ليس بناءً خارجيًا مرئيًا، ولا حيّزًا محدد المساحة، ولا تركيبًا من عرف، وأنسجة، ونوافذ بل هو كيان من الفعل المغير، والمحتوى على تاريخ ما، أو المضخمة أبعاده بتواريخ الضوء، والظلمة"[6].

وحصيلة القول: إنّ من الصعوبة بحال إعطاء مفهوم جامع مانع لمصطلح المكان فقد اختلف تعريفه من دارس إلى دارس، وذلك بحسب تخصص، وفهم كل واحد منهم، ولهذا تعددت الآراء والمفهومات حول مفهوم المكان.

ثانيًا: أهمية المكان في بناء الرواية: للمكان أهمية في بناء معالم العمل الروائي، حيث يرى الدارسون أنّ المكان بعد أن كان عنصرًا لا يكترث له، أصبح يعبر عن ذاته عبر أشكال معينة، ويتّخذ معانٍ متعددة، إذ يرى "هنري ميتران" (H_MITTERAND)أن "المكان هو الذي يؤسس الحكي، لأنّه يجعل الرواية المتخيلة ذات مظهر ماثل لمظهر الحقيقة"[7].

إنّ المكان بمثابة المحرك لمشاعر الشخص، وذاكرته في الخطاب الروائي، وكأنّه شخص أخر يحكي في الشخصية، وهذا ما قال به "حسن نجمي" من خلال كتابه "الفضاء المتخيل، والهوية في الرواية العربية" بقوله: "إنّ الأمكنة تعتبر محركًا لمشاعر الإنسان، ولذاكرته، فهي تعيده إلى الماضي، تدغدغ عواطفه، فتفتح له المجال واسعًا لخياله ولهذا يمكن أن تتحرك أحداث الرواية انطلاقًا من تعلق الشخصيات بذلك المكان، فالإنسان مثلًا عند رؤيته لجدران المنزل القديم الذي ولد فيه وهي منهارة، وأنّ هذا المنزل بقي أطلالًا فإنّه يسترجع حتمًا ذكريات الطفولة"[8].

ممّا سبق يتّضح أنّ للمكان أهمية بارزة في بناء عوالم الرواية، بوصفه مكونًا فاعلًا في بنية الرواية، يتأثر ويؤثر في المكونات الأخرى مثل: الشّخصية، والحدث، لأنّه من المستحيل _كما قال حسن بحراوي_ أن نتخيل وقوع حدث فعلي في النطاق البشري خالٍ من مكان محدد، لأنّ هذا الأخير يعد همزة الوصل الرابطة بين الشخوص، والزمان والأحداث، لهذا يعدّ المكان عنصرًا فعالًا في تنظيم الأحداث بالإضافة إلى مختلف العلائق التي يقيمها حتى تتضافر الشخصيات والأزمنة[9].

وعليه فالمكان يكتسي أهمية بالغة لا لأنّه أحد أهم مكوناتها الفنية لأنه هو الذي تجري فيه الحوادث، وتتحرك خلاله الشخصيات، بل لأنّه ينسحب في بعض الأعمال المتميزة ليشكل فضاءً يحتوي كل الأركان الروائية بما فيها من حوادث وشخوص، وما تحكمها من علائق، ويمنحها الجو الذي تتحرك فيه، ويكون هو المساعد على تطوير بناء

الرواية، والحامل لتصورات شخصياتها، والعاكس لفكر المؤلف "إنّ المكان ليس عنصرًا زائدًا في الرواية، فهو يتّخذ أشكالًا، ويتضمن معاني عديدة، بل إنّه قد يكون في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله"[10].

ثالثًا: جدلية المكان والفضاء والحيّز:

لقد تعددت آراء العلماء واختلفت حول التفريق بين المفهومات الثلاث "المكان، والحيز، والفضاء"، بغية معرفة طبيعة كل مصطلح، حيث نجد "حميد الحميداني" الذي جعل الفضاء أعم، وأشمل من المكان، وهذا الأخير يمثل حيز وعنصر مشكل للفضاء بقوله: "إنّ الفضاء في الرواية هو أوسع وأشمل من المكان، إنّه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواءً تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر عن تلك التي تدرك بالضرورة"[11].

هذا يبين أن الناقد جعل المكان جزء من الفضاء، وإذا كان الحميداني ذهب هذا المذهب فإنّ "حسن نجمي"سار على منحى آخر وهو القول بتداخل المصطلحين فاختلط لديه المكان بالفضاء، وعمل على الفصل بينهما بقوله: "الفضاء غير والمكان غير" [12]، وهناك من يرى أنّ الفضاء هو المكان، ومنهم "حسن بحراوي" الذي أكّد على ذلك بقوله: "وأنّ المكان هو الفضاء"[13].

يتضح مما سبق أنّ الدارسين انقسموا قسمين منهم من يرى أنّ الفضاء أشمل وأعم من المكان، ومنهم من يرى أنّ المكان هو الفضاء، فما قولهم في الحيّز؟

سعى الناقد الجزائري عبد المالك مرتاض للاهتمام بمصطلح "الحيز" حيث يعرفه بقوله: "أنّ الحيز امتداد يبدأ حيث ينتهي المكان"[14]، كما أنّه فرّق بين المكان والحيز حيث يرى أنّ "المكان يدل على ما هو جغرافي ماثل بتفاصيله، أما الحيز فيدل على ما هو غير ذلك في النص"[15] فالمكان عنده ما تجري فيه الأحداث، أمّا الحيز فإنه يتجاوز الحدود الجغرافية في النص الروائي ليشمل ما في النص من حوار وسرد ووصف.

يتضح مما سبق أن هذه المفهومات قد اختلفت وتباينت من دارس لأخر وذلك حسب منطلق ومذهب وفكر كل واحد، إلا أنهم اتفقوا أنّ هذه المفهومات تشمل أحداث الرواية وشخوصها.

رابعًا: الأبعاد الجماليّة للمكان في رواية كاماراد رفيق الحيف والضياع:

تمثل رواية "كاماراڈ رفيق الحيف والضياع" لصدّيق حاج أحمد الملقب بـ: "الزيواني" مغامرة عجيبة من قلب رمال الصحراء الكبرى، هامسة في هدوء الليالي اليقظة

للبحث عن الحلم والظفر بفردوس الشّمال مسعى "ليكامارادْ" (المهاجرون غير الشرعيين)، هذه الرّواية احتضنت قضية جد حساسة وحديث السّاعة في الأوطان الإفريقيّة البائسة ممزوجة بلغة الرمال الزاحفة نحو الحياة وبمستويات لغويّة متنوعة بتنوع ثقافات هذه البلدان، عاكسة لمظاهرها الاجتماعيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والثّقافيّة من منطلق ولادتها المكانيّة.

تجسد الرواية تجربة إنسانية تشخص من خلالها واقع الهجرة غير الشّرعية للأفارقة (الحرGـة) مستلهمة كيان الرجل الأسود انطلاقًا من القارة السمراء مرورًا بصحراء الجزائر، حيث مزج فيها المبدع الروائي الجزائري "الزيواني" بين فن الرّواية وفن السّينما وكتابة السيناريو والإخراج عابرا لثقافات البلدان الإفريقيّة وعادتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم بأنامل تنم عن سحرية الكتابة والفنيّة والإبداعية ومعايشة هذه الأوساط رابطا الخيال بالواقع، واصفا معاناة الحراGـة مستحضرا للماضي خارقا به الحاضر وكاسرا به أعباء المستقبل مؤثثا لقضيته وتمرده على واقع بلدان الساحل البائس الجامح والظالم لمواطنيه على الرغم مما تحتويه القارة السمراء من خيرات باطنية، سائرا لخرق أفق انتظار القارئ صانعا مفارقة مكانيّة عجيبة ممزوجة بالغرائيبية، ليكبح كل التوقعات إزاء الجنوب من خلال البحث عن الخلاص في الشّمال من قبل البطل "مامادو" الشّاب النيجيري الأسود الحالم بالوصول إلى جنة "ليكامارادْ"، والمخرج الفرنسي "جاك بلوزْ" الخائب بعد خسارته(السعفة الذهبية) في مهرجان كان 2012م؛ الباحث عن خلاصه في فردوس عالم أحلامه "الجنوب" لينتهي بها فردوسا حقيقية قلبت موازين المكان من ظلام الصحراء وقسوتها إلى نور منبثق من خطوط الرمال الجارفة نحو النجاح وشعاع الحياة الجديدة.

1_ علاقة صورة الغلاف بالمكان:

تشكل صورة الغلاف في الرّواية الواجهة التّي تستقطب عيون المتلقي وتستهويها، لأنّ الصورة لغة ترتبط بالوجود الإنساني، بل إنّها "أكثر من مجرد "مثير بصري" وهي شيء آخر في الوقت ذاته، إنها لا تكتفي بإثارة انتباهنا، بل تجنح إلى خلق دلالات؛ إنّها "رمز""[16]، وذلك لما تقدمه من تأويلات ولما تؤثث له من بث أحاسيس وانفعالات وأفكار في المتلقي استنادًا لأبعادها الثّقافية والتّاريخيّة والاجتماعيّة والدّينيّة محتضنة للحياة الواقعية ممزوجة بألوان الخيال، حيث "إن غاية كل تواصل بصري هي اسنفار لكَم هائل من الأحاسيس التي تتوسل بالنظرة أكثر مما تستدعي اللفظي لإدراك مداها"[17]، انطلاقا من تجاوزها التّعبيري إلى حفريتها في الذّاكرة الصورية المحنطة.

تفضح صورة الغلاف الأمامي اللعبة السّردية وحيثيات الرّواية، محاكية الواقع المرير الذّي يعيشه أبناء القارة السمراء في صورة المهاجرين السّتة الحاملين لحقائبهم بين

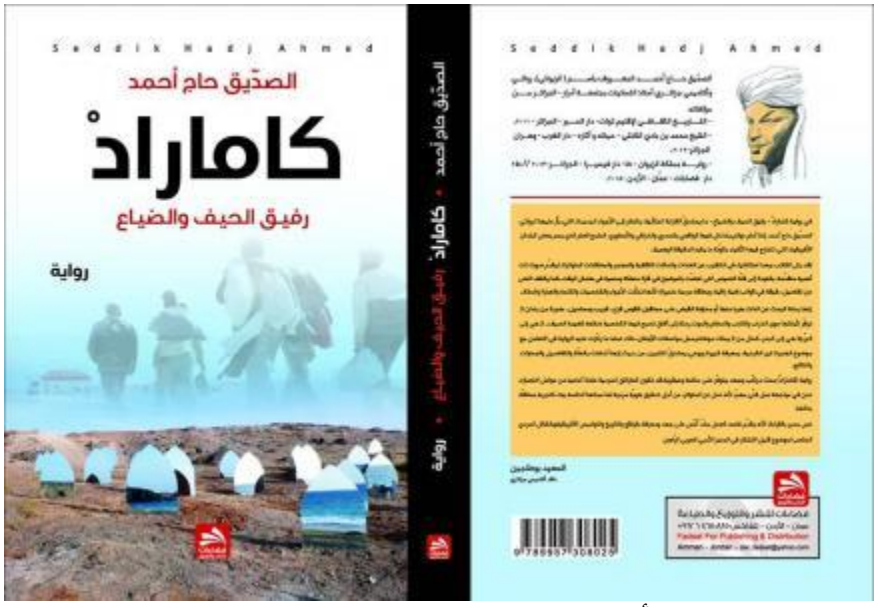

أيديهم وخلفهم متجهين للأمام (نحو مدينة الفينيدق المغربية) حيث اللامكان بالرغم من تحديد وجهتهم المنشودة، إذ تظهر صورتهم مخضرمة باللون الأزرق السماوي المتعالي مع شعورهم بالأمان الدّاخلي اتجاه مستقبلهم المجهول المتماهي في آمالهم البريئة وثقتهم بأمانيهم اللامحدودة في الظّفر بفردوس الشّمال، محلقين برغبتهم في العبور بين السماء وانعكاس لونها على مدرك الموت المنتظر في عمق البحر، حيث يماثل "الكاماراد" غيمة الصيف لا مجراها إلى البر ولا سيلها إلى البحر.

أما صورة القبور المصبوغة بأمواج البحر متربعة على عرش اليابسة تترجم متاهات الحرGة والسبل المجهولة للحراGة، صانعة مفارقة اللامكان بين الموت في الصحراء الإفريقيّة أو الموت في عرض البحر، ذلك أنّه لا سبيل لتحقيق الحلم والوصول إلى فردوس الشّمال دون اللعب على أوتار الموت؛ للخروج بسنفونية حلم الفردوس أو عزف ملحونة الموت الأبدي القابع بين ظلال عبودية الحياة البائسة في القارة السمراء.

وأكثر ما يشدّ نظرنا في صورة الغلاف الخلفي هو صورة الرّوائي الصدّيق حاج أحمد " الزيواني" شخصيا، وعلى رأسه عمامة أهل الصحراء ذات اللون الأبيض؛ باثا من

خلالها إحساسه بالاعتزاز بهويته واعتزازه بموروثه الثّقافي الصّحراوي الجزائري العربي، "حيث صارت العمامة آلة تدل على الجنس البشري، وعلى الانتماء الشعوري من الفرد. فالعربي يضع العمامة كي تكون علامة عليه ودليلاً يعلن عن هويته وجنسه"[18]، كما أنّها أضفت على الكاتب المبدع وقارًا وأصالة، وأفصحت عن علاقة بأصوله المكانيّة الصحراوية.

2_ البعد المكاني للعنوان:

يمثل العنوان لافتة إشهاريّة تبحر بالمتلقي_في عالم الرّواية، " فهو يشغل حاسة البصر أولاً ومن خلاله يحاول العقل بذخيرته المعرفية أن يكشف بعض أبعاده ويلملم تشظيه"[19]، وفي روايتنا "كاماراڈْ رفيق الحيف والضياع" لصدّيق حاج أحمد يسرد العنوان عوالم المغامر الإفريقي الحالم بفردوس الشمال وعلاقته بالمكان اللامكان بين المحطات المعروفة ومخاطر الطريق المجهولة، إذ يمر "ليكاماراڈْ" بأماكن عدة تخلد معاناتهم وضياعهم_في سبيل الفردوس المنشودة، إذ يشكل السفر والطريق والمغامرة وتعدد الأمكنة والموت المنتظر شظايا رحلة الرجل الأسود إلى جنة الشمال.

كما أن "كاماراڈْ" كما جاء على لسان البطل "مامادو": صفة الرفيق تلتصق بنا نحن أفارقة جنوب الصحراء "**بمجرد دخولنا أول نقطة حدودية للجارة الشمالية.... صاروا يطلقون على الرفاق منا صيغة (ليكاماراڈْ)، الغريب_في الأمر، أن هذا الوصف، يبقى لصيقا بنا حتى عبورنا لجارتها الغربية.. لستُ مخطيئا، إذا قلتُ إنها تركب معنا القوارب ونعبر البحر ونتخطّى بها حواجز الأسلاك الجديدية الشاهقة بمدينتي (سَبتْة) و(مليلْية) ويتردد صداها مع من كُتب له الجنّة بأحياء الضواحي الباريسية..**"[20] فمهما تغيّرت الأمكنة تظل الصفة الكمارادية ملتصقة بعابريها الطامحين وراء الفردوس المنشودة.

3_ البعد المكاني للتصدير:

الإحساس بالمكان يكشف لنا عن علاقات حسية بين أحداث الرّواية والأماكن التّي خصصت لها مجسدة_في ذاكرة العبور والاستيطان، وما نلحظه_في اختيار الروائي المبدع "الزيواني" للتصدير المتمثل_في:

_**نتفة أخيرة من أغنية الحرّاGة لمغني الرّاي الشهير الشاب خالد**، والتّي تقول:

"المستقبلْ مسدودْ..

ما أبْقى_في الدّوقْ حتّى بنّة..

الحوتْ ولاّ الدودْ..!!" [21]

فلهذه النّتفة الغنائيّة بعدا مكانيًّا ممزوجا بالزمن المستقبل المنتظر متجليًّا من خلال الكلمتين (**الحوتْ ، الدودْ**)، إذ تحيل هاتين اللفظتين على البر والبحر_في تعالقهما مع سماء أحلام "ليكاماراذْ" لينتهي الأمر إلى مصير واحد موت الأحلام أو الموت.

_ رسالة مهاجر إفريقي غريق تناقلتها وسائط التواصل الاجتماعي..

ولهذه الرّسالة جماليّة مكانيّة بارزة من خلال لغتها العابثة بالواقع الكمارادي، ويظهر فيها تحدي المهاجر الإفريقي لعرض البحر مخاطبا وطنه المكان الحنين والمكان سجين الأحلام البائس:

"عفوا يا وطن!! كلانا ميّت .. فقط الأسباب متعددة.. أنا غريق وأنتَ مَنْحور بمُدْيَة حكّامكَ العَسكر .. الذين تشيّخوا_في إخراج أفلام الانقلاب!!

شكرا بحر الرّوم (المتوسّط) على حسن الضيافة..زعم الدّجالون أنكَ أبيضُ.. توهّم الأفّاكون أن صنويكَ الأسود الأحمر مُقامهما بالشّرق هنالك!! لعمري إنكَ قَمينٌ بهذين الوصفين الأخرين صراحة..

أخيرا..

حللتَ أهلا يا غرق

نزلتِ سهلا يا بَقْبَقَة..

بَقْ.. بَقْ..بَقْ....

وداعا أيها الجنوب البائس.." (22)

فالوطن لا يتكلم ولا يرد والبحر لا يستضيف أحدا والموت مكان جديد للحراGة الحالم بحياة البرزخ، بل بات الموت عرض البحر مكانًا يقصده "ليكاماردْ" عبورًا إلى فردوسهم أو موطنا أبديا لا مناص منه.

4_ العناوين المكان:

عرفت الرّواية المعاصرة تطورًا_في مستوى تقنيات الكتابة السردية منها توظيف العناوين الداخلية، ونلحظ أن الكاتب المبدع "الزيواني" وظف هذه التقنية_في روايته التي بين أيدينا "كاماراذْ رفيق الحيف والضياع" من خلال إدراج مجموعة من العناوين داخل الرواية وهي:

[Gـيثار الصّدفة ._في القبر. البعث. النفخ_في الصور. المحشر. على الصراط. عين قزّام (مرسيليا ليكاماراذْ). تَمَنْزَاسَتْ (باريس ليكاماراذْ). هامش مدن الضواحي (اللّذة والممنوع). هامش مدن الضواحي (الشقاء والنعيم). هامش مدن الضواحي (الغربة والتيه). هامش مدن

الضواحي (الحيف والضياع). عباءة اليسوع. أدْرارْ (روما ليكامارادْ). رهاب طقس الشمال. ما تبقى من حيف الطريق. حتى سيدرة المنتهى. فردوس الجنوب المنتظر]. وإننا نلحظ أن البعض من هذه العناوين لها إحالات مكانيّة مباشرة منسوجة بخيال المبدع لتشكل لوحة فنيّة استحضر فيها "الزيواني" هُويّة عجائبية للقارة السمراء_في قالب جمالي يوحي بموهبة الكاتب_في تصوير الواقع مؤثثا بالأساطير والمعتقدات ونظرة الكمارادي للعالم، فهذه الأماكن الواقعية صبغت بصفات خياليّة وجعلت من صحراء الجزائر عروسا للصحراء الإفريقيّة الكبرى وشمالا زئبقيا للرجل الأسود القادم من دول الساحل البائس، إذ تجلى ذلك مثلا من خلال:

_عين قزّام (مرسيليا ليكامارادْ).
_تَمَنْرَاسَتْ (باريس ليكامارادْ).
_أدْرارْ (روما ليكامارادْ).

كما أنّ الكاتب يدهشنا_في العنوان الأخير بقلب موازين المكان المظلم الميت بعنف الطبيعة ليجعله ساطعًا بشعاع الأمل لحياة أفضل، والمتمثل_في:

_ **فردوس الجنوب المنتظر.** إذ يصنع مفارقة مكانيّة عجيبة خارقة لأفق انتظار القارئ، ملغيا فيها فردوسية الشّمال، طابعًا بها فردوسا جديدة من قلب الجنوب، مستلهما حلاً جديداً يثبط من خلاله مشكلة الهجرة غير الشرعية للأفارقة بإمكانيّة بعث روح حياة مشرقة_في قلب الجنوب البائس.

5_ علاقة الشّخصيات بالمكان:

المعروف أنّ الإنسان يتأثر بالمكان ويؤثر فيه، ففاعلية كل منهما_في الآخر طبيعة وليدة استمرارية الحياة، وهذا ما تعكسه معظم الروايات المعاصرة_في تعالق المكان بشخصياتها من منطلق التّجارب الإنسانيّة الواقعية الممزوجة بالسرد التّصويري مع اللعبة اللّغوية الممارسة_في معالجة قضاياها المختلفة، فقد أصبح المكان "يحدد هوية الشخصيات، ويبرز الحقائق الاجتماعية، ويستفز الذاكرة، ويفجر المشاعر، وفيه تنمو أحداث لا يمكن أن تنمو_في غيره، وتسكنه شخصيات لا يمكن أن تسكن غيره"[23]، فهو يطبع_في روح الشّخصيات ويعكس قوامها المورفولوجي ويفضح عوالمها الداخلية مولدًا نشوة علائيقيّة بينه وبين كيان كل شخصية ترتبط به، بل يتعدى ذلك "فقد أصبح يحدد سلوك الشخصية، واتجاهاتها زيادة على أن تقاليد المكان وأعرافه تحكم نفسية الشخصيات وممارستها، لذلك يحتل المكان دورًا بارزًا_في الكشف عن عالم الشخصية النفسي إذ إن المكان يقوم بتجسيد إحساس الشخصية"[24] ويلامس عوالمها وخوالجها المندفعة لتحريك

أحداث الرّواية وحياتها، وفي روايتنا "كامارادْ رفيق الحيف والضياع" سنقتصر دراسة تعالق الشخصيات بالمكان على كل من:

_ شخصية البطل "مامادو" الشاب النيجيري الكمارادي القادم من عمق مأساة الفقر والحرمان الحالم بفردوس الشمال، متخذا طريق الموت والمغامرة سبيلاً لتحقيق أحلامه، فعلاقة هذه الشخصية بالمكان علاقة سحرية عجيبة من خلال تعدد الأمكنة التّي تعايش بها انطلاقا من:

♦أثر المكان_في اسم الشّخصية "مامادو" واضحا وهذا ظاهر من خلال كلام صاحبه **"أكون أنا (مامادو) أو كما ينطقه إخواننا العرب (مُحَمّدُ) ونحاول_ نحن الأفارقة_ أن نقرّبه بـ (ماحامادو)، فدعتنا أعجميتنا إلى حذف (الحاء الممدودة) من وسط الكلمة الأخيرة، ليصير كما اسمي.."**[25]، فانتقال الاسم من البيئة العربية إلى البيئة الإفريقيّة أضفى عليه صبغة نطقية متجذرة من لغة المكان، فهذا الأخير له أثر_في طريقة نطق الأسماء حتى أنّها تصطبغ بالروح الإفريقيّة يكاد القارئ لا يميّز أصولها العربية الإسلاميّة وتداولها_في البلاد العربية، وهذا ما نلمسه_في أسماء الكثير من الشّخصيات إلى جانب اسم شخصية "مامادو" أمثال: (إدريسو، عسمانو، إبراهيما، سلاماتو، خديجاتو، زينابو...).

♦أثر المكان_في تحويل ديانة "مامادو" الإسلامية إلى لبسه عباءة اليسوع وانتحاله **"هوية شخص مالياني مسيحي يُدعى "روبنْسون كوليبالي".. بجواز سفر مزوّر طيلة تواجده على أرض الجارة الجزائر.."**[26] وذلك كله_في سبيل الظفر بفردوس الشمال إذ يقول: "**(كلّ شيء يهون من أجل تحقيق حُلمي.. سألبس الصليب_في رقبتي وألبس عباءة اليسوع من أجل خداع رجال الأمن، أني مالي مسيحي كما_في جوازي ..في عمقي نيجيريا مسلما ما يضيرني ذلك)**[27]، فهنا المكان _الجزائر البلاد العربية الإسلامية_ يكسر التوافق الديني لينتهي إلى اللامكانيّة بمسيحية مفتعلة من أجل عبور آمن نحو الجنة المنتظرة.

♦ فشل هذه الشخصية_في اجتياز السيّاج عند جيب "سبتة" وإرجاعه على متن طائرة إلى موطنه بعد رحلة الموت ومغامرة اللاحياة دامت ستة أشهر، ليجد_في المكان ذاته الجنوب البائس ومنبع الحرمان فردوسا حقق فيها أحلامه وآماله_في حياة أفضل، بعد أن تحول_في مسقط رأسه إلى مخرج سينمائي أنتج **" فيلما وثائقيا عن مظاهر الحرمان لدى الشعوب البائسة التي ترقد وراء الصحراء الكبرى.. أعطى لفيلمه التراجيدي، عنوانا (الوجه الآخر خلف الصحراء الكبرى)"**[28] ليتحول المكان من مقبرة الموت إلى فردوس الجنوب المنتظر.

_شخصية المخرج السّينمائي الفرنسي "جاك بلوزْ" من أهل فردوس الشمال المنشودة الباحث عن خلاصه_في الجنوب البائس يصنع تناقضا مكانيًّا بين الشمال والجنوب من

خلال عمله على الثأر لفشله في الحصول على السعفة الذهبية لمهرجان كان 2012م، **"أمام هذه الخيبة غير المتوقعة..قرّر (جاكْ) الثّأر لنفسه، ..... غير أن موضوع الهجرة السرية للأفارقة وما شاهده من تراجيديا إنسانية لهؤلاء البسطاء.....كانت تغازله دائما..لإخراج فيلم سينمائي، يحاكي فيه هذه المأساة الكونية.."** وبعد ترجيح فكرته في الموضوع وبحثه المطول **"بوسائط (ميديا) المعرفة عن أفقر دولة إفريقية، تصلح لأن تكون أرضية لبطله.... في كلّ مرّة كانت سعادة دولة النيجر هي المرشّحة بامتياز.....عندما وجد هذه الأخيرة، لا تُصنّف كأفقر دولة على مستوى إفريقيا فحسب.. إنما على مستوى العالم!!!!"**[29]، فهي صيد حقيقي لإشباع ملذات انتصار أفكاره.

والتقاء هاتان الشّخصيتان صنع قدرا جديدا للمكان السوداوي المظلم الجنوبي ومفارقة مكانية عجائيبية ويتجلى ذلك على لسان "جاك بلوز" في قوله: **"شاب نيجيري واعد.. لاقتني به الصدف، هو يحلم بالشمال حيث النعيم والخلاص وأنا أحلم بالجنوب حيث الحرمان والخلاص.. مفارقة غريبة جمعتني به!!"**[30]، إذ جعلتا من مكان الفقر والاضطهاد والحرمان فردوسا تتحقق فيها الأماني والأحلام ويسطع فيها شعاع المعجزات .

6_ البعد اللّغوي للمكان:

تمثل اللّغة الوعاء الفكري للمبدع ومن طريقها يمكنه التّواصل مع غيره، فإنّها "خزان ثقافي فكري وديوان للحضارة"[31]، كما أنّها تترجم الأفكار والأحاسيس والتّضاريس الإنسانيّة الداخلية والخارجيّة، ونلحظ في روايتنا حضور تشكيلة لغويّة متعددة بتّعدد ثقافات الشّخصيات وتعدد الأماكن، وهذا كله يوحي بثقافة الكاتب وانفتاحه على الجغرافيّة اللّغوية الإفريقيّة عمومًا والجغرافيّة اللّغويّة الجزائريّة خصوصًا، ونذكر من ذلك:

اللّغة العاميّة (الدّارجة الجزائرية): نُمثّل لها بالعبارة: **أنتوما تحلبتّو يالخاوة.....ص318.**

الأمازيغية: نُمثل لها بتحيّة النّادل القبائلي: **أَزّولْ أ Gمَسْتانْ ص167.**

اللّغة الفرنسية: ظهرت اللّغة الفرنسية في شكلين:

_عبارات فرنسية مثل:**Merci Mon Patron...ص27.**

_كلمات فرنسية بحروف عربية مثل: **كاماراذْ، مونْ باطرونْ، ماصو، الكاميرا مانْ** .....

_كلمات نيجيرية: **هُرا، Gـــورو، فولوهوري، أيْ صابو**....

اللّغة الإنجليزية: وحضورها نادر نُمثل لها بـ:**Give me your passport please**.ص298.

كما أنّ اللغة تمثلت المكان وما يحمله من مشاعر وأحاسيس إذ اختلطت فيه العوالم الدّاخليّة وخوالج ساكنيه، فالإنسان يرتبط دائما بمكان الولادة ويرتسم ذلك في صوته الدّاخلي والصدى المتكلم تحت علاقات جاذبية أكثر من الألفة، ليصبح المكان لغة واللّغة

مكانًا، ومن ذلك جاء_في الرّواية من وصف الحي_في أثناء مراسيم رحيل ليكاماراڈْ ليتحول الحي إنسانًا يعايش الأحداث:

_ خيّمت على الحي علامات الحزن_في تلك العشيّة..." ص101.

7_البعد النفسي والاجتماعي والديني والتاريخي للمكان:

يشكل المكان الهُوية والذاكرة والأرض والانتماء، كما أنّه يمثل الماضي والحاضر والمستقبل؛ لما له من علاقة مباشرة مع الوجود الإنساني، فهو يتحول من حيز مادي جغرافي إلى حيز روحي قيمي تتمركز فيه الذكريات وتنبض فيه الحياة، وقيمته من قيمة الإنسان الذي يحي عليه، وما شدّ انتباهنا_في رواية "كاماراڈْ رفيق الحيف والضياع" وصف الروائي المبدع "الزيواني" الشاعري والغارق_في الجماليّة الفنيّة والتّصوير البصري الإبداعي بتفاصيل مغرية للصحراء الجزائريّة ومدنها، وما يحمله من دلالات نفسية واجتماعيّة ودينيّة وتاريخيّة ذات صلة مباشرة به كونه من أبناء الصحراء، فهو ابن أدرارْ العريقة، فأدرارْ تمثل "روما ليكاماراڈْ"، ولها علاقة وطيدة بإفريقيا الجغرافيا الكل لما تتواصل معها من الجنس الكمارادي والطوارق وحتى_في الهندسة المعمارية من لون البيوت الأحمر وامتصاصه حر الشّمس وقصورها وزواياها، حتى باتت فال خير على كل من يحل بها من الكاماراڈْ:

_لون الأمل: هو الطاغي على ألبسة أهل البلدة، قدّرتُ_في غوري (إن نزولنا بها، فيه فال خير لنا...)

في غائرتي ثانية: (اللّون الأبيض سواء عند المسلمين أو المسحيين، يدلّ على النقاء ، الصفاء، الوضوح...) ص310.

وتظل علاقة الإنسان بالمكان أكبر من كلمات تخطى لتحفظ الذاكرة الجماعيّة، لأنّها باتت علاقة روحيّة بين العطاء والعطاء، حيث الإنسان يستمد قوته من عزة انتمائه المكاني ليسكب إبداعه وفنيته_في صنع صدى جمالية المكان الداخلي الروحي.

خاتمة:

أبدع الروائي "الزيواني"_في روايته "كاماراڈْ رفيق الحيف والضياع_في توظيف المكان الجغرافي بطريقة فنيّة جماليّة تنم عن قدراته الكتابيّة السينمائيّة، وذلك_في مزجه مخاطر رحلة الموت نحو فردوس الشّمال ومحطاتها المكانيّة المتعددة مع التّعدد الثّقافي والاجتماعي والديني وأساليب الحياة، حيث أخذت صحراء الجزائر ومدنها الركح الفنيّ لروايته، وباتت فسيفساء وعروس الصحراء الإفريقيّة بتمثلها لدلالات نفسيّة واجتماعيّة وثقافيّة وإنسانيّة من طريق التّصوير البصري، الذّي كسر الكاتب به جفاف الصحراء وقسوتها وصنع منها نبضات لملذات الحياة، حيث أسهم المكان_في بناء فيلمًا

سينمائيًّا سعى فيه الكاتب معالجة مشكلة الهجرة غير الشّرعية للأفارقة ومحولاً الجنوب إلى الفردوس المنتظر حيث تتحقق الأحلام.

الهوامش والإحالات:

[1]_ بسام علي أبو بشير: جمالية المكان_في رواية باب الساحة لسحر خليفة، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مجلد15، العدد2، غزة، فلسطين، دط، دت، ص237.

[2]_ ابن منظور: لسان العرب، تصحيح أمين عبد الوهاب ومحمد الصادق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999م، ج14، مادة (م ك ن)، ص112،113.

[3]_ غاستونباشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص179.

[4]_النصير ياسين: دراسة_في فن الرواية العراقية، دار الحرية، بغداد، دط، 1980م، ص6

[5]_ المرجع نفسه، ص16

[6]_ بسام علي أبو بشير: جماليات المكان، مرجع سابق، ص273.

[7]_ حميد الحمداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2000م، ص65.

[8]_ حسن نجمي: شعرية الفضاء المتخيل والهواء_في الرواية، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص140.

[9]_ ينظر: حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط1، 1990م، ص33.

[10]_ حميد الحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص62.

[11]_ حسن نجمي: شعرية الفضاء المتخيل والهواء_في الرواية، مرجع سابق،ص6.

[12]_ حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص20.

[13]_ عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية لرواية (زقاق المدق)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1995م، ص245.

[14]_ المرجع نفسه، ص245.

[15]_ مراد مبروك عبد الرحمن: جيوبوليتكا النص الأدبي، تضاريس الفضاء الروائي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002م، ص67.

[16]_ مراد مبروك عبد الرحمن: جيوبوليتكا النص الأدبي، تضاريس الفضاء الروائي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002م، ص67.

[17]_ غي غويتي: الصورة المكونات والتأويل، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2012م، ص9،10.

[18]_ عبد الله الغذامي: الثقافة التلفزيونية سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2005م، ص101،102.

[19]_ محمد صابر عبيد: فضاء الكون السردي جماليات التشكيل القصصي والروائي (نخبة من النقّاد والأكاديميين)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1436هـ، 2015م، ص274.

[20]_ الزيواني (الصّديق حاج أحمد): كامارادْ رفيق الحيف والضياع، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016م، ص37.

[21]_ الرواية، ص5.

[22]_ الرواية، ص8.

[23]_ المصري خالد: حركة المجتمع وتحولات النص، دار المدى، دمشق، ط1، 1997م، ص158

[24]_ شاهين أسماء: جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراست والنشر، بيروت، ط1، 2001م، ص113.

[25]_ الرواية، ص39.

[26]_ الرواية، ص31.

[27]_ الرواية، ص291

[28]_ الرواية، ص262.

[29]_ الرواية، ص15،14.

[30]_ الرواية، ص262.

[31]_ عبد المجيد العابد: السيميائيات البصرية قضايا العلامة والرسالة البصرية، محاكاة للدراسات، دمشق، سوريا، ط1، 2013م، ص 78.